الخيار الوسط

دخلت الانتفاضة الشعبية في الضفة الفلسطينية وقطاع غزة، في التاسع من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٠، عامها الرابع، وسط أجواء من التوتر الشديد اكدت ان محاولات سلطات الاحتلال الاسرائيلية، على امتداد السنوات الثلاث الماضية، تثبيت واقع تعايش مع الانتفاضة، على قاعدة القبول بمستوى معيّن من الخسائر المادية والبشرية في مقابل منع الانتفاضة من تحقيق اي من أهدافها، او محاولتها التقدم على هذا الطريق، هي جزء من تكتيكات وسياسات كثيرة فاشلة اعتمدتها سلطات الاحتلال في مواجهة الانتفاضة. وعلى العكس من ذلك، بدا ان الانتفاضة تمكّنت، بعد ثلاث سنوات، من كسر حالة التعايش التي سادت في مراحل سابقة. واتخذت مع اقتراب الذكرى الرابعة لانطلاقتها ملامح وتوجّهات وجد فيها اسرائيليون كثيرون انعطافاً نحو مرحلة اكثر خطورة. فقد بلغ التوتّر بين المواطنين، في الضفة والقطاع، وسلطات الاحتلال الاسرائيلية، ذروته في خلال الشهرين الماضيين، «وبات الاسرائيليون، الذين رأوا في الانتفاضة مصدر ازعاج [لهم من] خارج الجدار يشعرون بالجدران تنهار وتُخْترق» (**القدس العربي**، لندن، ١٠/١٢/١٩٩٠؛ نقلاً عن افتتاحية **هآرتس**، ٩/١٢/١٩٩٠).

فقد اجتازت الانتفاضة حواجز ومفاهيم أمنية كثيرة مع عبور بعض انشطتها وفعالياتها «الخط الأخضر»، حيث أوقعت عدداً من الاصابات في صفوف الاسرائيليين في كبرى المدن في البلاد، مبددة جميع التقديرات الرسمية الاسرائيلية، بدءاً بتوقّعات وزير الدفاع الاسرائيلي السابق، اسحق رابين، في العام ١٩٨٨، «ان يتعب الفلسطينيون قبلنا»، وانتهاء بفكرة فرض التعايش على الانتفاضة التي راجت مؤخراً، فقد «تحوّلت الانتفاضة الى حرب شعب ضد شعب آخر» (**المصدر نفسه**، ٥/١٢/١٩٩٠؛ نقلاً عن افتتاحية **هآرتس**، ٤/١٢/١٩٩٠). واصبحت المناطق المحتلة، في الضفة والقطاع، وبفعل كفاح السنوات الثلاث الماضية «منفصلة، عملياً، عن دولة اسرائيل التي تقتصر سيطرتها، [راهناً]، على الاماكن التي تقع تحت السيطرة المباشرة للجيش [الاسرائيلي] على محاور الطرق الرئيسة وداخل المستوطنات، [في الوقت الذي] نجح الفلسطينيون في تنظيم حكم ذاتي لأنفسهم، [أخذوا] يديرون، من خلاله، حياتهم اليومية» (اسحق غال ـ نور، «الانتفاضة نسفت امكانية الاحتفاظ بالمناطق بعد ٢٣ عاماً من الاحتلال»، **المصدر نفسه**، ١٣/١٢/١٩٩٠؛ نقلاً عن **يديعوت أحرونوت**، ١١/١٢/١٩٩٠).

أشارت وقائع ومظاهر الاحتفال بالذكرى الثانية لاعلان استقلال دولة فلسطين، التي حدثت في الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٠؛ ومن بعدها، بأسابيع، احتفالات الذكرى الرابعة لانطلاقة الانتفاضة، في التاسع من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٩٠، والتي عمّت مختلف مناطق الضفة والقطاع، الى المستوى النسبي الذي وصلته مرحلة الاستقلال الداخلي. ففي احتفالات الذكريين الوطنيتين، غطت المظاهر الوطنية وعلم فلسطين والرايات واليافطات والشعارات الوطنية واشكال الزينة جميع مناطق الضفة والقطاع، فيما استمرت التظاهرات واشكال الاحتجاج الاخرى طيلة أيام الاحتفال بالمناسبتين، اللتين عكستا حالة مثلى لقدرة الانتفاضة على كسر التعايش مع الاحتلال، واحباط التكتيكات الاسرائيلية الأخرى.

تمكّن الفلسطينيون، في الضفة والقطاع، من الوصول الى هذا المستوى من الاستقلال الداخلي النسبي بعد ثلاث سنوات، أصابوا، في خلالها، أربعة آلاف اسرائيلي، ما بين جندي ومدني، بجروح؛ وقاموا بمئة وعشرين ألف عملية رشق حجارة، والفين وخمسمئة عملية القاء زجاجات